عمر بن عبد العزيز

٦٢ - ١٠١ هـ

للأستاذ عبد الحميد العبادى

ود الحكماء من قديم لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة ، أو لو أن الفلاسفة كانوا ملوكا ؛ اذن لاقترنت السياسة بالأخلاق على أساس ثابت مطرد . وتعاونتا جميعا على النهوض بالمجتمع الأنسانى ، ولاستحال عالمنا المضطرب جنة راضية ونعيما مقيما .

وكثيرا ماكتب الحكماء فى نظم عامة ابتدعتها أخيلتهم وزعموها توفر على الناس فى هذه الدنيا اللذة والسعادة، وتنفى عنهم الألم والشقاوة : فعل ذلك أفلاطون فى « الجمهورية » والفارابى فى « أهل المدينة الفاضلة » وتوماس مور فى « أوطوبيا » كما فعله كثير غير هؤلاء ممن ترسم آثار أفلاطون ونسج على منواله .

هذا الحلم الجميل تحقق أو كاد فى التاريخ مرة واحدة على مانعلم ، وذلك على عهد الخليفة العربى المسلم عمر بن عبد العزيز ، فهو رجل القت اليه المقادير بزمام أعظم دولة فى الارض فى زمنه ، ومع ذلك استطاع ان يقدع شهوته حتى كاد يميتها ، وان يروض نفسه حتى ردها الى الرضا بالقليل الأقل . ثم تجرد لأصلاح رعيته من طريق العدل والرفق والرحمة ، فأذاقهم لذة الأمن واليسر والرضا . وفوق هذا وذاك قد ترامت همته الى ماوراء قومه وبلاده ، فطمع أن يجمع شعوب الارض طرا فى نظام واحد يقوم على مبادىء الأخوة والعدالة والمساواة . وقد وفق ابن عبد العزيز فى هذا المطمع البعيد توفيقا حدّ من مقداره ياللأسف ، ان عجلت اليه المنية وهو لايزال فى ميعة العمر وعنفوان الحياة .

* * *

قد اجتمع فى تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملا الوراثة والبيئة معا ، فأبوه عبد العزيز قد ولى مصر عشرين سنة دلت على ثقافته العالية واضطلاعه بأعباء الحكم ، وبصره بتألف القلوب ، وجده مروان بن الحكم هو ذلك السياسى الجرىء العارف بنفسية الأفراد والجماعات ، والخبير بانتهاز الفرص عند أمكانها . وأما نسبه لأمه ، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكفى بانتسابه الى تلك الشخصية العظيمة تعريفا بسبب من أسباب ورعه وجراءته فى الحق على نفسه وغيره .

وليس أثر البيئة فى تكوين ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة ، فقد ولد بالمدينة عام ٦٢ هـ وشب بها على أصح الروايات . فلما ولى أبوه مصر عام ٦٥ هـ حمل اليه ، ولبث بمصر زمنا ما ، نعم فيه بصحبة أبيه ومشاهدة آثار الحضارة المصرية والبيزنطية ، وهنا رحته دابة فشج شجته التى عرف من أجلها بأشج بنى أمية ، فلما بلغ سن التأديب بعث به أبوه الى المدينة ليتأدب بها وينشأ نشأة أسلامية مدنية ، وكانت المدينة اذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة ، يعرف فيها من يحللها الروح الدينى الصحيح ماثلا فى نفر من بقايا الصحابة وكبار التابعين ، أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، كما يعرف فيها الجانب الأرفه من الحياة ممثلا فى مثل عبدالله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربى ، وطائفة من المغنين والقيان يتقدمها معبد ومالك بن أبى السمح المغنيان المدنيان الشهيران . ثم ان المدينة كانت اذ ذاك من الناحية السياسية موطنا للمعارضة التى تستند الى الكتاب والسنة فى مقاومة الحكومة الأموية . فى هذه البيئة تخرج ابن عبد العزيز ، فروى الحديث عن حملته ورواته ، ولقف صناعة الغناء وأعانه على المساهمة فيها صوت ندى عذب . كما أشرب روح الحكومة الأسلامية القديمة التى كانت تختلف عن الحكومة الأموية أختلافا كبيرا . الى ذلك كله كان ابن عبد العزيز فتى مليح الخلقة ناعما مترفا كعادة فتيان بنى أمية . يروى أنه أبطأ يوما عن الصلاة فسأله مؤدبه صالح بن كيسان عن سبب أبطائه فقال: « كانت مرجلتى تسكن شعرى » فكتب مؤدبه بذلك الى أبيه ، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق شعره .

* * *

فى عام ٨٥ هـ توفى عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكان ابنه عمر قد تم تأدبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبدالملك بن مروان الى الشام وزوجه من ابنته فاطمة ، ثم ولاه (خناصرة) وهى بليدة من أعمال حلب واغلة فى البادية . فلبث واليا عليها سنتين كانتا من أنعم سنى حياته وحياة زوجه . وقد أعجبته خناصرة حتى أنه عندما استخلف اتخذها منزلا على عادة ملوك بنى أمية فى أيثارهم سكنى البادية على الحاضرة . وفى عام ٨٧ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينة بدلا من هشام بن اسمعيل المخزومى الذى أساء السيرة فى أهلها ، ولاشك ان الوليد انما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة القوية بينه وبين هذه الولاية ، ثم أنه بعد قليل ضم اليه مكة والطائف

فأصبح عمر بذلك أميرا على الحجاز كله .

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز (٨٧ - ٩٣) حكومة شورية أبوية يمازجها من ناحيته الشخصية مقدار غير قليل من الحرص على الترف والتنعم . فلأول قدومه المدينة أصطفى عشرة من العلماء أتخذهم نصحاء ومستشارين يصدر فى الأمور عن رأيهم ، ثم عكف على أصلاح شئون الحجاز فهدم المسجد النبوى وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع ، وأصلح الطرق ، وأكثر من الآبار ، فتيسر بذلك الماء فى ذلك القطر الظمىء ، كما أنه عمل بالمدينة فوارة يستقى منها أهلها . وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عند مازار المدينة سنة ٩١هـ وأمر للفوارة بقوام يقومون عليها ، وان يسقى أهل المسجد منها ، ففعل عمر ذلك . ومن مظاهر بساطة عمر فى أمارته بالحجاز أنه جلس مرة فى المسجد يرتل القرآن بصوته العذب فتأذى بذلك سعيد ابن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم يرعمر بأسا بأن ينتحى ناحية أخرى من المسجد . وبلغه ان قاضيه على المدينة استخفه الطرب عند ماسمع جارية تغنى حتى أخرجه من وقاره ، فعزله عمر ، ولكن القاضى المعزول تحدى الأمير لسماع الجارية ، فسمعها عمر وكاد هو أيضا يستخف ، فعذر القاضى ورده الى عمله . وعند ما قدم الفرزدق الشاعر المدينة وكانت السنة ممحلة وخاف أهل المدينة لسانه رفعوا أمرهم الى عمر فأخرجه من المدينة ونهاه ان يعرض لأحد من أهلها بمدح أو بهجو . أما من حيث حياة عمر الشخصية فى تلك الفترة فكان مترفا مسرفا فى الترف ، يرخى شعره ويسبل أزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئات الدنانير ، ويكثر من الطيب حتى لتقصف ريحه اذا مشى مشيته « العمرية » وهى مشية كان يتبختر فيها ويختال ، ولملاحتها كانت الجوارى تأخذها عنه .

حادث واحد نغص على ابن عبد العزيز أمارته على الحجاز : ذلك مصرع خبيب بن عبد الله بن الزبير فقد نقم الخليفة الوليد من خبيب أشياء بلغته عنه وكتب الى عمر أن يضربه ، فضربه عمر ضربا كان فيه هلاكه . وقد جزع عمر لذلك جزعا شديدا ، ويقولون أنه لبس المسوح سبعين يوما حدادا على خبيب ، ثم أقلع عن ذلك . فلما استخلف دفع دية خبيب الى أوليائه ، ومع ذلك كان يرى أن الله لابد مؤاخذه بذلك الذنب ، فكان اذا بشره أحدهم بالجنة قال : « وكيف بخبيب ! »

وغدا الحجاز ينعم بأمن وعافية مما أبتليت به الأمصار الاخرى ولاسيما العراق من الفتن والقلاقل ، ولذلك أخذت فلول ثوار العراق والخوارج تفد على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه المسلول ، فكان ابن عبد العزيز يجيرهم ويحميهم . ثم لم يكتف بذلك فكتب الى الخليفة يندد بعسف الحجاج وبطشه . فاضطغنها الحجاج عليه وكتب الى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة يجير « مراق » العراق وان ذلك موهن له . وقد نظر الخليفة فى الأمر مليا ، ثم رأى ان يشد أزر الحجاج فى هذه الخصومة ، فالعراق أخطر من الحجاز ، والحجاج أولى بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز . فصرف عمر عن الحجاز بأميرين أحدهما للمدينة والآخر لمكة . فكان أول ماصنعا أن أخرجا من الحجاز الى الحجاج كل عراقى فى الجوامع والأغلال ، وتوعدا كل حجازى أنزل عراقيا أو آجره دارا .

***

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز الى الشام مغاضبا للخليفة الوليد ، وقد ساءه ان عزل عن أمارة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو ببعض الطريق : « أخشى أن أكون ممن تنفيه المدينة » أشارة الى الحديث الوارد فى ان المدينة تنفى خبثها . فلما حصل بالشام شغل نفسه بالغزو فرارا من وجه الوليد والتماس الأجر والسلوة . فلما توفى الوليد عام ٩٦ وولى سليمان بن عبد الملك لزمه عمر ، وكان أثيرا عنده يستشيره سليمان وينزل على رأيه فى كثير من الأمور ، على ان عمر نفعه أن عزل عن الأمارة على النحو المتقدم فقد دفعه ذلك فى السنوات الست التى قضاها بالشام قبل ان يستخلف (٩٣ - ٩٩) الى النظر فى حال الدولة العربية فى أواخر القرن الأول الهجرى

نظر فأذا الدولة الأسلامية قد أبعدت فى التخلى عن الصفة الدينية التى كانت لها قديما ، وأسرفت فى الاصطباغ بالصبغة الزمنية المتطرفة ، أليست حكومة عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة تجبر وطغيان ؟ أليست حكومة سليمان حكومة الشهوة العطشى والجسد المنهوم ؟ لقد أصبح السلطان يعتمد فى شد أركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيف المرهف . أما العدل ، وأما الرفق ، وأما الرحمة . فلم يعد لكل ذلك عنده محل ولاحساب . ونظر فأذا أموال الدولة قد عراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها . فنحو ثلث أموال الدولة قد استحال ملكا خاصا لبنى أمية ، واكثر الضرائب يجبى من غير وجوهه ، ويصرف فى غير مصارفه الشرعية . فكثير من الأراضى الخراجية التى لا يصح تملكها قد استحالت أرضا عشرية يتملكها أفراد من المسلمين يؤدون عنها الزكاة التى مقدارها أقل من مقدار الزكاة . وكثير من الموالى أو مسلمى الأعاجم لايزالون مع أسلامهم يؤخذون بالجزية لغير ماسبب سوى أن العمال لحظوا فى أسلامهم معنى الفرار من الجزية فأبوا ان يعفوهم منها . هذا فوق ان هؤلاء الموالى لم يكونوا

والعرب سواء فى الحقوق ، فكانوا يغزون الى جانب العرب دون ان يكون لهم عطاء . ثم ان عدم أنفاق الزكاة فى مصارفها الشرعية قد أدى ألى كثرة الفقراء والمساكين والمرضى والزمنى ممن جعل لهم الشرع حقا فى الصدقات العامة . ثم نظر فرأى بأس الأمة الأسلامية بينها شديد ، قد توزعتها الفرق المتباغضة والأحزاب المتناحرة ، فمن شيعة يطوون الصدور على الاحن لما نالهم به بنو أمية من أذى ومساءة ، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام القائم وأحلال نظامهم محله ، ومن موال قدساءهم الا يسوى بينهم وبين العرب فى الحقوق العامة ، ومن مضرية ويمنية وربعية ، كل يحاول ان يكون له النفوذ السياسى من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير فى السلطان نفسه . هذا فى الداخل ، أما فى الخارج فرأى عمر ان الجهاد الذى شرع على عهد النبى صلى الله عليه وسلم لمنع العدوان على النفس والعقيدة ، والذى كان على عهد الشيخين ضرورة اقتصادية ملحة ، قد استحال فى زمن الأمويين أداة للتوسع فى السلطان ، وجر المغنم الوافر ، والسبى الرائع ، حتى قال الشاعر :

الا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

نظر عمر فى كل ذلك فرده الى سبب جوهرى واحد هو انحراف الجماعة الأسلامية عن الاساس الذى قامت عليه ، أساس الدين . والدين عند عمر هو الدين المتصل بالحياة العامة يمدها ويغذيها بقوته المعنوية ، والممسك لشئون الجماعة ان تضطرب وتصبح فوضى ، هو الدين الذى أثره فى الحاكم شعور قوى بالمسئولية وعمل صادق على أسعاد العباد والترفيه عنهم ، والذى أثره فى المحكومين اقتضاء للعدل اذا حرموه ؛ وأنفة من الضيم والذل اذا ما أريدوا عليهما ، الدين عند عمر بن عبد العزيز : هو الحق والأنسانية عبر عنهما بلفظ واحد .

و بينا عمر يرسل الفكر فى أنحاء الحياة الأسلامية العامة متعرفا عللها اذا به فى الوقت نفسه قد اخذ يخضع لتطور نفسانى عنيف . لقد اخذ حرصه على الترف والتنعم يضعف رويداً رويداً ، وميله الى الزهد والتنسك يقوى شيئا فشيئا ، واصبحت نظرته الى الحياة نظرة الى متاع قليل زائل ، لا يعدل شيئا بجانب طمأنينة النفس وراحة الضمير ، كما أصبح دائم التفكير فى الموت وفيما بعد الموت ، فالموت آت لا ريب فيه ؛ والموت برزخ مؤد اما الى جنة واما الى نار ، والمنتهى على كل حال رهين بما يكون عليه المرء فى العدوة الدنيا من ذلك البرزخ الرهيب .

ماسر هذا التطور العجيب الذى جعل من ابن عبد العزيز الناعم المترف ناسكا زاهداً متصوفا ؟ تتبين ذلك السر فى نفسية ابن عبد العزيز من جهة ؛ وفى مقدار تأثره بالحياة الاسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى . لقد كان فى عمر نزوع طبعى الى الزهد ، فهو كما رأينا من سلالة عمر بن الخطاب ؛ وكان فى طفولته يحاول التشبه بخاله الزاهد عبد الله بن عمر ، ولما تورط فى أمر خبيب لبس المسوح سبعين يوما يأسا من غضارة العيش ، ولذاذة الحياة ، فلما نصح بالأقلاع عن ذلك أقلع . ثم ان الحياة الاسلامية قد ألمت بها فى أواخر القرن الأول نزعة زهد جاءت كرد فعل للمادية التى طغت عليها اذ ذاك . هذه النزعة التى تحولت بعد الى الحركة الصوفية المشهورة نتبينها فى طبقة العباد والنساك التى يتكلم عنها صاحب العقد الفريد طويلا . وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو فى المدينة ، فكان من أشد الناس تأثيرا فيه عبيدالله بن عبدالله ابن عتبة . فلما صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من أقطاب عصرهما علما وزهداً وورعا . هذان هما الحسن البصرى ورجاء بن حيوة الكندى . أما الحسن فقد اتصل به عمر من طريق المراسلة ، ولعله قد اخذ عنه كراهية القول بالقدر الذى ينسب الى الحسن خطأ . وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبد الملك ، وكان لذلك أقرب الى عمر وأقوى به اتصالا .

وبعد فلئن كان النظر فى الأحوال العامة قد انتج لعمر ضرورة الرجوع الى الدين فى اصلاح غيره ؛ فقد انتج له مزاجه الخاص وتأثره بالزهاد من أهل عصره ضرورة الزهد من اجل اصلاح النفس وتهذيبها . الدين والزهد ، هاتان هما الخلتان اللتان كانتا تعمران فؤاد عمر وقلبه عندما أخذ صلحاء الشام يرشحونه للخلافة .

(يتبع)

شركة مصر لغزل ونسج القطن

تعلن شركة مصر لغزل ونسج القطن أنها أتمت تجهيز مبيضة ومصبغة بمصانعها بالمحلة الكبرى لتبييض وصباغة كافة أنواع الخيوط والأقمشة القطنية والكتانية ولتجهيزها تجهيزاً نهائيا

وهى على استعداد تام لتبييض وصباغة كل ما يطلب منها بأسعار غاية فى الاعتدال ، ويسرها أن تجيب عن كل استعلام يطلب منها